أهمية اللغة العربية في الحفاظ على الهوية في ظل تحديات العولمة

الأستاذ: إبراهيم سواكر

مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية

وحدة ورقلة – الجزائر.

ملخّص:

اللغة العربية ذات تأثير إيجابي في تشكيل شخصية الفرد العربي وتكوين خلفيته الثقافية، فكلما استطاع التمكن منها أمكنه أن ينهل من ينابيع المعرفة سواء تراث الأجيال أو من نتاج المعاصرين.

لكن اللغة العربية لم تبق صافية سليمة، فهي تواجه امتحاناً صعباً إزاء جديد الألفاظ، والتي أصبحت تزاحمها وتعيش على حسابها سواء ما يجري على الألسنة أو ما تكتبه الأقلام؛ فأصبح ذلك خطرا جليا، وتحديا واضحا يحدق باللغة العربية، ويهدد كيانها، ويكاد يطغى عليها في العصر الحاضر، متخذا من المجتمع العربي مجالا خصبا لانتشاره، تلك الألفاظ التي فرضتها تحديات "العولمة "إذ تعد العولمة الثقافية أخطر أنواع العولمة لأنها تغوص في صياغة الفكر والسلوك الإنساني بوسائل متعددة.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الفصحى، العامية، الإعلام، العولمة، الفكر

Summary:

Arabic language has a positive effect on building the personality of an Arab person. And creates his cultural background the more he managed, the more he could get out of the spring of knowledge .whether from both the heritage of generations or from the product of the contemporary ;but the Arabic language didn’t remain pure sound , it is facing a difficult test about new vocabularies which became contenting and living on her account whether from what is said or writing by movies , this became a serious danger and clear challenge staring in Arabic language . And threatens its entity and its almost overwhelmed in the present era . taking from the Arab community fertile ground for its spread. Those words impose by the challenges of “ globalization” as cultural globalization that is considered as the most dangerous type of globalization because it plunges into the formulation of human thought and behavior by multiple means.

مقدمة

اللغة هي وليدة الثقافة التي تنتمي إليها، وهي ثقافة تحكمها محطّات تاريخية وجغرافية، واللغة هي أقدم تجلّيات الهوية كونها تجعل من مجموعة من الأفراد جماعة واحدة ذات هوية مستقلة من خلال اللغة المشتركة بينهم فهي وسيلة التواصل بين أفراد المجتمع ومن خلالها يكتسبون الخبرة والمهارة، ونمو المعرفة والارتباط فيما بينهم وبين تراثهم وحضارتهم، ويتواصلون مع ركب الحضارة والتطور، ولا يقتصر دور اللغة أنها أداة للتواصل فقط، إنما يتجاوزه إلى كونها حلقة وصل بين الأجيال من الأمة الواحدة تتناقل بينها موروثها التاريخي وإنتاجها الفكري بما يقوي الوحدة بين أفرادها ويعزز شعورهم بالانتماء لها.

واللغة العربية لعبت دورا هاما عبر العصور في الحفاظ على الروابط المتينة بين أفراد الأمة العربية في الظروف الحالكة التي مرت بها الأمة في وقت تكالب فيه الأعداء من غزو التّتار إلى الحملات الصليبية، وصولا إلى الحركات الاستعمارية والتي تعاني جل البلدان العربية تبعاتها إلى يومنا هذا، وقد تبوّأت اللغة العربية مكانة دينية راسخة، حيث كان لها قدسية كبيرة لدى المسلمين، فهي لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، كما أسهمت في إثراء الحضارة الإنسانية واحتلت مكانة تاريخية بارزة شكلت بها لنفسها موقعا حضاريا عالميا مرموقا.

ومع ما شهده العالم في أواخر القرن العشرين من إعادة تشكيل خارطة نظام عالمي جديد، والذي بدأت تتضح معالمه تدريجيا متخذا من وسائل الإعلام والأسرة وحتى المؤسسات التعليمية مجالا خصبا في توسيع رقعة انتشاره، مما جعل اللغة العربية تواجه تحديا كبيرا يحدق بها ويهدّد كيانها ويكاد يطغى عليها، ويتمثّل هذا التحدي في ظهور مصطلح العولمة، هذا المصطلح الذي أدى دخوله للبلاد العربية إلى حدوث الكثير من الاضطراب لعدم الإلمام بمفهومه وطرح التساؤل في مدى التأثير الذي سيقوم به في جميع المجالات ومنها اللغة القومية.

وهنا يكمن الإشكال في معرفة التحديات التي تواجه اللغة العربية في الاندفاع نحو العولمة؟ خاصة في

ظل عدم وجود قوانين رادعة لحفظ اللغة ؟ وكيف نجعل من اللغات الأجنبية، في عصر العولمة، لغات لغايات محددة وواضحة وجعل اللغة العربية هي لغة العربي وحيّزه؟ وكيف لنا أن نجعل العربية لغة حاضرة في عالم ثورة المعلومات، لها حضور في العلوم المختلفة والفضائيات، والحاسوب لبناء قاعدة معلوماتية بالعربية؟

1. دور اللغة العربية في توحيد الأمة والحفاظ على الهوية:

تأتي اللغة العربية في مُقدِّمة اللغات التي نجحَتْ في القيام بدور حضاري رفيع، وارتَقت بالفرد العربي من بدوي صحراوي يعيش في البادية ليكون هو ولغته قائدا للحضارة والمعرفة

الإنسانية على مستوى العالم قرونًا عديدة مُتوالِية، ويَكفِي في هذا المقام أن نتذكَّر أنها نالت شَرفَ حمل آخر رسالات السماء إلى الأرض بلسان عربي مبين.

وإذا كانت "اللُّغة" بصفة مطلقة هي الهُويَّة ، فإنَّ "اللغة العربية" تحديدًا هوية لأصحابها (العرب)، ولغيرهم مِن المسلمين ذاتُ خصوصية، فهي أعلى مستوى من مجرَّد لغة وأكثر عمقًا، وأشدُّ التصاقًا بناطقيها وتمييزًا لهم، إنَّها هوية من طراز خاص، تمتلك الكثير من عناصر القوَّة التي تعطيها هذا كلَّه، و يلخص الدكتور فيصل الحفيان هذه العناصر في النقاط الآتية:[1]

أ- **القداسة:** "العربية" مقدَّسة في نظر أبنائها، وقداستها مستمدة من ارتباطها بكلام الله – تعالى - (القرآن الكريم) بحروفه وألفاظه، والقرآن الكريم هو حروفٌ وألفاظ قديمة لا أوَّل لها، كما يرى علماء المسلمين عامة، وأهل السنة منهم خاصة، إنَّه من صفات الله – تعالى – كما أنَّ الله - سبحانه - في القرآن نفسه ينصُّ في غير آية على عروبته، أو عربيّته، في سياقات تتغيَّا مديح هذه اللُّغة بنعتها بالإبانة نعتًا مباشِرًا حينًا، أو غير مباشر حينًا آخَر.

ب- **الحفظ:** والعربية أيضًا محفوظة، تعهَّد الله بأن تبقى ما بقيت الحياة؛ لأنَّها أيضًا لغة القرآن الكريم؛ {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: 9] [2]؛ ولذلك فإنَّه لا يُخشى عليها من الزوال، ولا تَعصِف بها رِياحُ الزَّمن ، وهذا ما يُفسِّر لنا بقاءها واستمرارها حتى اليوم، دون أن تتحوَّل إلى لُغات كما حدث مع اللاتينيَّة مثلاً.

ت- **التاريخية:** وتعني: أنَّ التاريخ يعمل فيها عمله، فاللُّغة وعاء التاريخ، وكلَّما كان هذا الأخير ممتدًّا وخصبًا انعكس على اللُّغة قوَّةً وثراء، وتاريخ العربية يمتدُّ قرونًا طويلة، كانت هي خلاله لسانًا واحدًا ولا تزال، خلافًا لتواريخ كثيرة، وألْسنة عديدة، انقطعت أو بُترت، فما عاد لها صلةٌ بمراحلَ تاريخيَّة سابقة، ولا لُغات أمَّهات وُلدت من رَحِمها.

ث- **الجغرافية:** هذا عنصرٌ لا بدَّ أن نتوقَّف عنده؛ لأنَّ اتساع المكان - مكان اللُّغة - يعني اتساعَ حراكها، وزيادة ثرائها، والعربية امتدَّتْ على مساحات شاسعة من العالَم، بفضل الإسلام، وفي كلِّ مكان وصلت إليه كانت تتفاعل مع طبيعته، وسكَّانه، تأخذ منه ومنهم وتعطيهم، ولعلَّه لا توجد لغة من لُغات العالَم قد اتسعت اتساعَ العربية جغرافيًّا.

وكان اتّساع حراك العربية طوعيًّا رَغِب فيه أصحاب الأرض وقَبِلوه، بل سَعَوْا إليه، ليس ذلك فحسبُ، ولم يكن مجرَّد اتساع حروف وتراكيب تَجري على الألْسنة؛ ولكنَّه كان ثقافة وحضارة، وفكرًا وانتماء، بالمعنى العميق للغة.

ج- **الحضارية:** بعض اللُّغات تتمتَّع بعنصر ممَّا سبق، أو اثنين أو أكثر؛ لكنَّها لم تصنع حضارة، أو لم تسجِّل سبقًا في مرحلة تاريخيَّة، ونعني بالصناعة أو السَّبْق هنا ليس مجرَّد صناعة حضارة جزئية، أو تحقيق سبق في جانب ما؛ ولكن قيادة الحضارة واستلام رايتها، مثل

هذا الإنجاز يكون سندًا كبيرًا لُغةً ورصيدًا. وهذا ما تَحقَّق للعربية، فقد كانت لُغةَ الفِكر والعلم والتقدُّم قرونًا عديدة.

ح- **الثراء:** تصنَّف اللغة العربية ضمنَ أسرة اللغات المتصرِّفة، وهي أرقى الأسر اللُّغوية، فهي تمتلك وسائلَ كثيرةً تزيد من قدرتها على تحقيق وظائفها في التعبير والتواصُل، ومن ذلك الاشتقاق بأنواعه والنحت، والإلْصاق والمجاز، كما أنَّها تملك - كما قال اللُّغويون العرب - حوالي 10 آلاف جذر لُغوي، إنَّه ثراء في المادة، وفي الآليات التي تغني هذه المادة، وتزيد من قُدرتها على تحمُّل المعاني المختلفة، والتعبير عنها.

لكنَّ اللغة العربية في حاضرها اليوم هي في حاجة إلى أن تستجمع قواها لمواجهة متطلَّبات الحاضر والمستقبل في المجال المعرفي والحضاري، وأن تقوم بفضْل وعي وهمَّة أبنائها للقيام بدورها الحقيقي في المحافظة على الهُويَّة، واستعادة بعض الملامح المهدَّدة بالزوال.

لأنه ورغم ما قيل سابقا عن حيوية اللغة العربية وأهميتها في عملية بناء وتكوين المجتمعات العربية، إلا أن التحديات أمامها كبيرة والمعوقات أمام نمائها كثيرة ومتنوّعة.فهناك مسألة الازدواجية بين لغة معيارية وأخرى محكية، وحقيقة كون اللهجات المحلية لغة الحياة اليومية للناس، الأمر الذي يحدّ من تحوّل اللغة المعيارية إلى لغة المجتمع أو الأمّة .وهناك مسألة التحديث وتخلّف اللغة العربية عن احتواء المعارف الإنسانية المستجدة ضمن الحداثة وما بعد الحداثة، وفي إطار نهضة العلوم وثورة التكنولوجيا .وهنالك المواجهة الحضارية اللغوية المتسارعة كجزء من سيرورة العولمة أو كجزء من الإرث الاستعماري وتأثير لغاته على العالم العربي.[3]

ونحن في عصر تؤدي الحالة التي هي عليها لغة الأمة - قوةً أو ضعفًا - دورا مهمّا في المحافظة على كِيانها ووجودها، أو تركه عُرضةً لتقلُّبات الأهواء والأحداث من حوله، إضافة إلى سعي اللغات الكبرى إلى السيطرة على اللغات المُنافِسة لها، من خلال العمل على إضعافها وتفتيتها، وتلجأ في سبيل الوصول إلى ذلك الهدف لوسائل علميَّة وتعليميَّة وإعلاميَّة، يتَمَّ إعدادها ودراستها بعناية ودِقَّة، مع خلق توازن بين المُغريات والعُقُوبات ؛ لجَذِب أبناء اللغة المستهدَفة أنفسهم، حتى يكونوا المساعد الأهم في تحقيق الهدف المنشود.

واليوم نشهد تعاظما لهذه التحديات في عصر العولمة ومن بين هذه التحديات هو هيمنة اللغة الانجليزية وحضورها البارز في كثير من مجالات الحياة في العالم.

ويبرز هذا التحدي في الوطن العربي من خلال انتشار ما يسمّى" المدارس الدولية"، ومدارس اللغات، والمدارس التجريبية، في مختلف الدول العربية، حيث يتم التدريس في هذه المدارس باللغة الإنجليزية،وانتشار ظاهرة العبارات الإنجليزية التي تكتب على الملابس،وتفشي ظاهرة" التحول اللغوي "إلى اللغة الإنجليزية في أثناء الحديث والحوار بين المتكلمين، من دون أي مبرر لذلك. بل

أصبح الاعتقاد السائد بين شرائح كثيرة في معظم البلدان العربية أن اللغة الإنجليزية هي رمز الحداثة والتحضر والمدنية، وأضحى هناك نوعا من التباهي والموضة في إتقان الإنجليزية أكثر من العربية.[4]

ومن هنا فاللغة الإنجليزية تضع تحديًا أمام اللغات والهويات في كل أنحاء العالم، فهو ليس تحديا أمام اللغة العربية وحدها فقط . وإضافة إلى التحدي الذي تمثّله الإنجليزية أمام المجتمعات العربية فإن هذه المجتمعات مثقلة بالإرث اللغوي للفترة الاستعمارية .وهذه التحديات ومثلها لا يمكن مواجهتها إلا عن طريق سياسات وطنية وتعاون عربي مشترك وجاد.

هناك حقيقة في الوطن العربي يقر بها الجميع أنه لم يتمّ أي تحديث وتحيين يُذكر لبنية اللغة العربية وكتابته، .ولم يطرأ أي تعديل في القواميس أو استحداث للمصطلحات والتراكيب التي تصبغها الجدة مواكبة لتطوّرات العصر، بدلالة أنه يوجد شبه انعدام المقابل لمعظم المصطلحات الحديثة والقدرة على التحول إلى لغة حداثية. وعليه هنالك حاجة ماسة لمشاريع تعمل على النهوض باللغة العربية وجعلها تواكب متطلبات العصر. فالتعليم العربي عاجز على العموم عن تطوير اللغة العربية وعن إعداد المتعلّمين لدخول عصر العولمة فيما النصوص الرقمية باتت الأهم في عملية الإنتاج المعرفي الرقمية .

هذا، إلى جانب افتقاد العالم العربي لمشروعٍ فاعل يعتبر هذه التحديات أولويةً قومية يتمّ مواجهتها ببرامج مدروسة.

2. اللغة العربية والعزوف الداخلي:

تمر اللّغة العربية في هذا العصر بفترة عصيبة وواقعاً مراً؛ فهي بين مستهين بشأنها، غير آبه بالدقة والصحة في استخدامها لغة للتعبير والاتصال، وداع إلى نبذها، واستبدالها باللّغة الأجنبية مجالي التدريس والتأليف، حتى في المستويات الأولى من التعليم، مدعيا أنها على قدر من العجز لا يسمح لها بمواكبة العلم والتكنولوجيا، والاستجابة لما يحدث فيهما من تطور متسارع، والمناداة بضرورة استخدام العامية لغة للإعلام والإنتاج الأدبي، زاعماً أنها الوسيلة الأنجع والأسهل في مخاطبة الجماهير، والوصول إلى عقولهم وقلوبهم.[5]

وكما هو معلوم أن ظهور مثل هذه الدعوات راجع لنجاح الرواسب الاستعمارية في وضع جذور في التعليم تنفر من اللغة العربية وتقلل من شأنها حتى هانت على أهلها وأصبحت عبئًا عليهم. بحيث ترك الاستعمار ذيولًا من أبناء العربية ينهجون نهجه في الحملة الحاقدة على العربية والنّيل من قدرتها والتقليل من قدْرها.[6]

إن محنة العربية لا تتمثل في حشود الألفاظ والمصطلحات الوافدة إليها من عالم الحضارة إلى عالمها الذي يبدو متخلفًا، ليس ذلك فحسب بل إن محنتها في انهزام أبنائها نفسيًا

واستسلامهم أمام الزحف اللغوي الداهم، في مجال العلوم والرياضيات بحيث تكونت في العالم العربى جبهة عنيدة تجاهد للإبقاء على العربية بمعزل عن هذه المجالات، قانعة بعلاقة هشة مع لغة الحضارة فما دامت صفوة المشتغلين بالعلوم تعرف الإنجليزية فلا بأس من عزل العربية بل وقتلها.[7]

لقد أدى ادعاء الذين بأيديهم الأمر وكبار أصحاب الأقلام والمراكز الإدارية والثقافية في البلاد العربية، بأن اللغة العربية أصبحت لغة الشعر والأدب والتعبير عن خلجات النفس، و إلى تصور أنها لا تمتلك القدرة على مسايرة ركب الحضارة الحديثة وعلى استيعاب مصطلحاتها، ومن هنا فلابد للطالب العربي أن يتلقى دروسه بلسان أجنبي، وهذا ما أدى إلى تدهور اللغة العربية في عقر دارها. ومن ثم أصبح التعليم الجامعي يعاني قصورًا في استخدام اللغات الأجنبية أيضًا مما ينعكس انعكاسًا سلبيًا على إبداع وإنتاج أي إنتاج نفخر به على المستوى المحلي والعالمي.

كما يجب الإشارة إلى الدور السلبي للغويين العرب من خلال انغلاقهم على أنفسهم فعلم اللغة في الوطن العربي ما زال لحد الآن قاصرًا على دارسيه وأصبح كثير من المتعلمين و المثقفين لا يعرفون شيئًا عن علوم اللغة وقواعدها وأصولها. كما بدت كتابات اللغويين وقفًا عليهم قراءة وفهمًا.

للأسف لم يستطع أرباب اللغة سوى رفع شعارات ضد التطور ومحاولات الرقي باللغة ولم يقدموا لرجال العلوم المختلفة ما يشبع رغباتهم وبسرعة تجري مع معدل الاكتشافات وما تأتي به الاختراعات وما يتناقل عبر شبكات الاتصالات من مصطلحات ومعلومات تخدم اللغة وذويها إن عُربت مع قدرة اللغة العربية على استيعاب جميع المصطلحات بل يقال أنها تبني جميع ألفاظ لغات العالم.

3. اللغة العربية والتعددية اللغوية وأحادية اللغة:

إن الهجمات الأجنبية الشرسة ليست مجرد محاربة للغة العربية ومحاولة إحلالها بلغة أجنبية فقط بل تهدف لفض عُرَى الوحدة الوطنية والإسلامية وإضعاف الكيان الفكري والثقافي والحضاري العربي. إن حرب اللغة حرب سياسية جغرافية معلوماتية بكل الأشكال والأنواع.

وما حدث في تركيا لخير مثال على ذلك فقد نجحت الأتاتوركية في تحويل الحروف العربية التي تكتب بها التركية إلى حروف اللغة اللاتينية ، فهل أدى إلى ما كان يرنو إليه كمال أتاتورك وأتباعه من نهوض وتقدم وتحضر؟؟؟ الجواب لا ، فالدولة لا تزال من الدول التابعة حضاريًا

للتكنولوجيا العربية، والذي حدث هو إبعاد "اللغة" عن متناول الفرد التركي، وعجزه عن قراءة القرآن. إذن فهي حملة تهدف إلى سلخ الفرد التركي عن دينه وإبعاده عن دستور ربه بإبعاده عن لغة القرآن،[8] أضف إلى ذلك سلخه من الكيان العربي الإسلامي وتقليص حجم هذا الكيان لخطورة وحدته وحضارته المرتقبة إذا عاد لسالف عهده من الترابط والنهضة والعزم على الرقي. وهنا نحس باللمسات الغربية التي هي وراء كل تفكك ودعوة مستترة، للتخلف مثل دعوة استخدام العامية وغيرها.

فهناك محاولات هدفها التغريب والغزو الثقافي ومحاولة احتواء الفكر العربي والسيطرة عليه بفكر وافد. هذه الهيئات ليست هيئات ملموسة مادية لكنها تدرك بالفكر الواعي والناضج الذي يستطيع إدراك ما يحاك ضده من مؤامرات وهنا يأتي دور الفئة الواعية المثقفة ومسؤوليتها التي يجب أن تحملها على عاتقها وهذا هو الجهاد الأكبر، يجب التصدي لهذه المحاولات بفضحها ومقاومتها وتوعية البسطاء وتقييد المنتفعين بها. إن التغريب لم يعد موضع شك أو تساؤل بل إن مناهجه واضحة ومعروفه وله ممولوه ودعاته ومؤيدوه .إن مفاهيم التغريب كثيرة أوضحها خلق عقلية جديدة تعي وتفكر وتنتمي للعالم الغربي وفكره وتصوراته ومقاييسه وتحقر كل ما يخالف ذلك من أفكار الأمم والديانات الأخرى.

أهم أسلحة التغريب تجريد المجتمعات من لغاتها ،وتجريد المجتمع العربي من لغته هو تجريده من تراثه وأصوله ودينه فهو عزله عن قوميته وعروبته وانتمائه،وجذبه للغات الأجنبية حتى يفقد الفرد القدرة على الفكر والإبداع التي تمده بها لغته وينقاد فكره وإبداعه لسواها. وما ارتباطنا باللغات الأجنبية واستخدام ألفاظها إلا دليل على ارتباطنا الاستهلاكي في المعارف أو المنتجات في جميع المجالات بالغرب والذي يفرضه علينا الوضع القائم، إن من أهداف التغريب أيضًا أن يجعلنا مستهلكين لمعارف أجنبية وفكر أجنبي ومن ثم منتجات أجنبية فنسمع أغانيهم و نلبس ملابسهم ونستخدمها بلفظها الأجنبي ناهيك عن أسماء المأكولات والمطاعم ودور السينما والأجهزة الحديثة ومدن الترفيه وفي النهاية ننقاد إلى منتجاتهم ويصبح انتماؤنا إليهم فنعيش تحت السيطرة الغربية فكرًا واقتصادًا أيضًا لأن كل ما هو محلي سيندثر ويزول. إننا بذلك نكون قد وضعنا حول رقابنا قيد عبودية لا خلاص منه وهو ما يُهدف إليه.

وقد جاء تحدي العولمة في وقت تعاني فيه اللغة العربية من تحديات عدة حاولت إضعاف شأنها، ومن هذه التحديات الازدواجية اللغوية التي تعيشها العربية، والثنائية اللغوية، تلك الثنائية التي بذل الاستعمار جهده في تكريس وجودها من أجل نشر لغته من جهة والتقليل من التعامل باللغة العربية من جهة أخرى.

ومع ظهور العولمة توفرت أرضية خصبة للإنجليزية مكنتها من الانتشار والشيوع بمعجم مشترك يشبه أن يكون كونياً، معجم يوجد في العربية، مثلما يوجد في غيرها من اللّغات الأوروبية، والآسيوية ، والإفريقية وهو معجم يبدأ برموز الحياة اليومية في التحية (Hi) ... والموافقة (OK) والوداع (Bye) [9] ، وامتد دخول الإنجليزية إلى رموز الأطعمة: (McDonalds)و (Burger King)و، (Seven up)ووسائل الاتصالات ومعجمها (Internet) و ، (Message)و ، (Mobile)وفي غير ذلك من مظاهر السلوك البشري.[10]

ويشير الموسى إلى أن هذه المفردات وغيرها قد استوطنت العربية، حّتى غدا الجيل الناشئ يشتق منها فيقول: مسَّج أو مسِّج من (message) بدلاً من أَرسَل أو أرسِل. وسيف، وتسييف من (save) بدلاً من أحفظ وحفظ.....، ويضيف الموسى أنَ سبق هذه المصطلحات إلى التداول عند هذا الجيل جعلهم يستهجنون أو يستثقلون المقابل العربي؛ بل يضحك أحدهم إذا ما اقتُرح عليه أن يستبدل نقرتين بـ:Double Click)[11] .

فدخول المفردات الإنجليزية إلى العربية أو إلى غيرها من اللّغات يمثل مشروعاً يطمح إلى حل مشكلة تعدد الألسنة، والمشروع يرى أن الإنجليزية فيها من الميزات ما يجعلها كفيلة بأن تنهض بهذه المهمة على مئات اللّغات المقترحة لهذه الغاية، ويعود المشروع في تاريخه إلى الربع الأول من القرن العشرين، وهو يقدم الإنجليزية الأساسية على أنها محاولة لمنح كل واحد لغة ثانية، أو لغة عالمية بأقل وقت ممكن، وهنا يسرد نهاد الموسى ما قدمه المستشرق الإنجليزي مرجوليوت من مقارنة بين اللغتين؛ الإنجليزية والعربية، ليظهر بمقابلته ما تمتاز به الإنجليزية فيقول فيها: " لو تساوى عدد المتكلمين باللّغة العربية والمتكلمين باللّغة الإنجليزية لوجب تفضيل اللّغة الإنجليزية على العربية لأن فيها استعمال الحركات والحروف الكبيرة A,B,C,D ..... والحروف الصغيرة أيضاً a, b,c,d ، وهذه ميزة تجعل الصحيفة الإنجليزية أوضح من العربية وأبين".[12]

وهناك من يحبذ إطلاق تسمية العولمة الثقافية، وربما سموها اختراقاً كما فعل محمد عابد الجابري إذ قال:" إن العولمة تعني: نفي الآخر، وإحلال الاختراق الثقافي ...والهيمنة، وفرض نمط واحد للاستهلاك والسلوك"[13] ، وقد سماها الموسى بعولمة الفضاء؛ لأن الفضاء وسيلتها في الترويج والنقل والبث بين الناس رغم بعد المسافات، فالأداة الرئيسة للعولمة الثقافية تتمثل في الفضاء؛ إذ هي تحاصر الفضاء بخمسمائة قمر صناعي أو يزيد، ويبلغ ما تبثه من الأفلام بالإنجليزية 70) (%، مما يعمل على صياغة مخيال الناشئة على مدى الكون صياغة نمطية مشتركة الأمر آلذي يجعل ألسنة شباب صغار حفاة في إحدى الغابات النائية من أمريكا اللاتينية تتحدث عن نجوم هوليود ونجماتها كما لو كانوا من جيرانهم أو بنات جيرانهم.[14]

وتركيز الموسى على عولمة الثقافة لتغلغلها في اللّغة العربية من جهة المضمون، فتجعل منها تنزاح عن مدلولاتها الثقافية من القيم فتصبح " مطية "لمحمولات مناهضة لمنظومتها من القيم التي تمنحها خصوصيتها الثقافية .وهذا الضرب من الاستلاب اللّغوي يراه الموسى مغايراً لما سبقه في أزمان الاستعمار التقليدي؛ إذ حاول الاستعمار الفرنسي فرض لغته محل العربية على نحو ما فعل في الجزائر، وحاول الاستعمار الإنجليزي تفتيت العربية إلى لهجات في المشرق .وحقاً أن هذين التدبيرين لم ينجحا تماماً وإن كانا قد خّلفا صدعاً في المشهد اللّغوي العربي ويستطرد في ذلك بقوله:" أما آثار العولمة من هذه الجهة وجهات أخرى فإنّها تتفاعل على أنحاء ما نزال نجهد في تتبعها وتشخيصها"[15]، وعليه فأقمار الفضاء وفق ما يراها الموسى تحمل في طياتها غزواً جديداً للثقافة العربية واللسان العربي.

ويرى الموسى أن التحدي الأكبر آلذي يواجه العربية من عولمة الفضاء يتمثل في شبكة الإنترنت، إذ أن الإنجليزية تسيطر على معظم مواقعها في العالم، ولا أدل على ذلك من أن (88%) من معطيات الإنترنت باللّغة الإنجليزية[16]، ومن تأثير الإنترنت على العربية أن مقتضيات التواصل الآني على شبكته أفضت إلى بنية لغوية مهلهلة، كما أفضت إلى كثير من الاختصارات الغريبة التي تزاوج بين الحروف والأرقام، فحرف العين مثلاً يتحول إلى الرقم (3) وعليه تصبح كتابة كلمة كسعاد مثلاً هكذا (so3ad).

ويرى الموسى أن العلاقة بين اللغة العربية والعولمة علاقة متغيرة تسير على النحو الآتي:[17]

-العولمة على المستوى الثقافي تواجه مدافعة عنيدة بالمرجع الديني في الثقافة العربية، حّتى وإن تغلغلت بإغرائها الاستهلاكي والغريزي في أوساط الناشئة.

-تواجه العربية تحديات من جهة النقاء وأّنها مستهدفة في محمولاتها، وأن تشكيلها اللّغوي بكل تجلياته أصبح غرضاً لسهام الدول المتقدمة في ركب العولمة؛ وذلك في دعواتهم السافرة إلى تحديثها.

- حوسبة العربية تتقدم باطراد؛ نحو كسر احتكار اللّغة الإنجليزية للإنترنت وتفتح للقارئ العربي والعربية آفاق التواصل في الفضاء الكوني، حّتى وإن لم يكن على معرفة بالإنجليزية.

4. وسائل الإعلام وخطر العامية على اللغة العربية الفصحى:

تعتبر اللغة إحدى الركائز الأساسية لمختلف وسائل الإعلام المسموعة والمرئية للإذاعة والتلفزيون كما للصحافة والسينما والمسرح وهذه الوسائل تؤدي وظائفها بمساعدة اللغة التي هي وسيلة للتواصل وأساس للتعبير عن الأخبار" وتؤكد الحقائق أنه من الصعوبة بمكان أن تضطلع أي من أجهزة الأعلام – سواء كانت سمعية أم بصرية أم مقروءة أم شفهية– بالدور المنوط بها دون استخدام رموز اللغة ".[18]

والعلاقة بين الإعلام وعلوم اللغة إنما هي علاقة عضوية لا تفصم عراها شأنها في ذلك شأن العلاقة بين الطفل وأمه.

وإذا كان للإعلام هذا الأثر الكبير في الحياة اللغوية والثقافية وأن اللغة كما هو معروف تكتسب بالسماع والمحاكاة فإن أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية حين تلتزم العربية السليمة هي أحسن مصدر لتعليم اللغة ومحاكاتها والتقريب بين اللغة السليمة واللغة المحكية، " وتعتبر اللغة العربية من أصلح اللغات، وذلك لأنها تتمتع (بالديناميكية) أو الحركية التي تجعلها أصلح اللغات لطبيعة الإعلام وتمنحها طواعية في إيراد الأحداث .[19]

ويرى الدكتور محمد المختار أن بث وسائل الإعلام اللغة العربية الفصيحة البسيطة المفهومة الواضحة، التي تناسب العصر يعد تلقينًا، إذا استمع إليه الناس، استقر في أذهانهم من خلال التكرار، ومع استمرار ذلك تنطبع تلك الأساليب الفصيحة المسموعة في ذاكرتهم، فيحصل لهم ما يسمى بالملكة، وتدفعهم هذه الملكة إلى محاكاتها أثناء الحديث دون تكلف أو شعور، وينمو عندهم الحس اللغوي الطبيعي في التعبير تلقائياً عن أحاسيسهم، ولا يعني ذلك أن نطلب من وسائل الإعلام أن تقدم دروساً ومحاضرات تتعلق بنحو اللغة وصرفها، وإنما نريد منها أن تقدم برامجها كلها بلغة عربية فصيحة، بسيطة، معاصرة خالية من الأخطاء بعيدة عن العامية.[20]

وقد أحدثت وسائل الإعلام بعامة شرخًا في حائط الفصل الدراسي، بعد أخذها دور الأسرة والمدرسة في نقل العلم والمعرفة إلى الأفراد، فأصبح معظم التعليم يتم خارج الفصل الدراسي، وأصبح حجم المعلومات التي تنقلها الصحف والمجلات والأفلام والإذاعة والتلفزيون في أيامنا هذه، يفوق بكثير كمية المعلومات التي ينقلها مدرس الفصل، وهذا التحدي حطم احتكار الكتاب كمساعد أساسي في العملية التعليمية.[21]

ولعل الدور اللغوي لوسائل الإعلام بعامة هو الجانب الأخطر في حياة أمتنا، ونخص بالذات دور وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، وتأتي أهميتها من كونها لا تخاطب شريحة دون غيرها، ولا فرداً دون سواه، فكما يسمعها الخاصة يسمعها العامة.

وكلنا يعلم أن مصادر التنمية اللغوية متعددة، فهناك الأسرة، والمحيط الخاص، والمدرسة والمجتمع بكل قطاعاته وطبقاته وطوائفه، كما أن المادة المقروءة بمختلف أشكالها تعد مصدرًا مهماً في تنمية لغة الإنسان، هذا بالإضافة إلى وسائل الاتصال الحديثة، ووسائل الإعلام من إذاعة وتلفزيون وهذه المصادر– كما نلاحظ -ينضوي قسم منها تحت الاتصال الاجتماعي المباشر، وقسم آخر يأتي ضمن الاتصال الاجتماعي غير المباشر.

فاللغة تضم في ثناياها خصائص لغة الإعلام وهي بيان العلاقات المتغيرة بين الإنسان والإنسان وبين المرء وبيئته الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو المادية أو غير ذلك من العلاقات .

وعلى ذلك فإن اللغة العربية لها القدرة للإجابة على الأسئلة التي تدور في مخيلة الإعلامي وهي: ماذا حدث وماذا يجري الآن ؟ هل من جديد؟ ويرجع ذلك إلى وجود الخصائص الإعلامية الأصلية في اللغة العربية والتي تبين تكيفها وفقا للقوالب الإعلامية المختلفة بحيث استخدمت في الصحافة الحديثة وفي الوسائل الإعلامية المستحدثة.

ويثني الدكتور شرف عبد العزيز على اللغة العربية الفصحى وعن دورها في الإعلام بقوله: " وقد اكتسبت اللغة الإعلامية هذه المرونة من امتياز الفصحى بالعمق الذي يجعلها تنبض بالحياة ، والذي يجعلها تقوم علي الترجمة الأمينة للمعاني والأفكار ، والاتساع للألفاظ والتعبيرات الجديدة التي يحكم بصلاحيتها الاستعمال والذوق والشيوع ".[22]

ويتبين لنا أن اللغة العربية تمتعت بخصائص إعلامية تجعلها تتماشى مع غايات الإعلام الحديث من حيث أنه أداة وظيفية وليست فنا جماليا يقصد لذاته، ولاشك أن هناك بعض الدعاوى التي تتهم اللغة العربية بالقصور في النهوض بلغة الإعلام، ويشيعون أن العامية هي لغة التفاهم والتداول بين أبناء الوطن حتى مع الصفوة من المثقفين أهل الفكر.

ويتضح أن دعاوى استخدام العامية في وسائل الإعلام لا تعتبر تعبيرا موضوعيا فإن اللغة العربية التي تحملها أجهزة الإعلام هي التي يفهمها من يتكلمون العربية من مختلف المستويات وبين الشعوب العربية، فاللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي يلتقي عندها أهل العربية في جميع أقطارهم يتكلمون ويكتبون بها فإذا التزم رجال الإعلام بالقواعد اللغوية الصحيحة وحرصوا على اتخاذ الفصحى لغة حديث وكتابة يقدمون بها برامجهم ويكتبون مقالاتهم وأحاديثهم ويعبرون بها عن مختلف الأمور كان ذلك يدل علي رقي اللغة العربية في جميع مجالاتها .

واستخدام اللغة العربية الموحدة في صحافتنا الفضائية يساعد إلى حد بعيد على توحيد رؤانا ونظراتنا وأفكارنا وتطلعاتنا وعلى صهرها في بوتقة قومية عربية مشتركة وتتحمل أجهزة الإعلام في العصر الذي نعيش فيه مسؤولية ضخمة في الحفاظ على اللغة العربية وتقويم اللسان العربي ورعايته وتصحيح الأخطاء التي ترتكب في حق العربية وحماية الجماهير العربية من الانحراف بها ، ذلك أنه إذا ظلت أجهزة الإعلام تُهمِل الأداء الصحيح للغة العربية فسيبلغ الانهيار مداه ولا يستطيع أي منصف أن ينكر الدور الكبير الذي تلعبه وسائل الإعلام والأثر البالغ الذي تحدثه في الجماهير إيجاباً أو سلباً، فلم يعد يقتصر دورها على التبليغ والنشر ولكنه تعدى ذلك تشكيل آراء الجماهير وإعادة بناء عقولهم وزرع اتجاهات عقلية في أذهانهم .

ولابد لنا من استخدام وسائل الإعلام المختلفة للحفاظ على اللغة العربية لما لوسائل الإعلام من دور متعاطف ودور متسع يهيمن على كثير من نشاطات حياتنا، تنامى تأثيره في عقول الناس وممارساتهم الشخصية والقومية وتصاعد إسهامه في تكوين الرأي العام.

والطريق نحو تقوية اللغة العربية وتحصينها، يمرُّ عبر تنفيذ قرارات وتوصيات المجامع اللغوية والمؤتمرات المتخصصة ، والتي تعبّر عن الإرادة الجماعية للنخب الفكرية والعلمية والثقافية التي تمتلك إلى العلم والمعرفة الغيرةَ على اللغة العربية.

ذلك أن مواجهة الأخطار الناتجة عن تحديات العولمة والمهددة للهوية الثقافية والحضارية، لا تتمّ إلاّ بالعمل الملموس انطلاقاً من الواقع، وبأدوات العصر، وبالوسائل التي تتيح للغيورين على اللغة والقائمين على تطويرها والمهتمين المسؤولين عن حمايتها والحفاظ على خصوصياتها، وأن يستوعبوا المتغيرات في مجالات العلوم وشتّى حقول المعرفة، ليواصلوا تطوير اللغة وتحديثها.

ونخلص مما سبق ذكره أن عولمة اللغة تعني سيطرة اللغة الإنجليزية على بقية لغات العالم، وهي اللغة رقم واحد في التعامل التجاري، وقوة اللغة في عصرنا الحاضر مرتبطة بالقوة السياسية والقوة الاقتصادية، في وقت جاءت "العربية" في الترتيب الرابع، من بين اللغات الأكثر شيوعاً في العالم، بعد اللغات الصينية والإنجليزية والإسبانية، وإن تردي اللغة العربية وسطوة العاميات المتعددة على مجرى الحياة في مجتمعات الوطن العربي بما فيها الجامعات العربية قد يؤديان إلى ضعف رابطة الانتماء العربي الكبير، فاللغة العربية لا تزال كما كانت في أيام الفتوحات الإسلامية أكبر عامل موحد بعد الإسلام لأمة العرب. ويحصل ذلك من خلال إنشاء مراكز موحدة تهتم بدراسة قضايا العصر، سواء كانت ثقافية أو اجتماعية أو حضارية فور ظهورها، ومتابعة تطورها، ووضع التصور السليم للموقف إزاءها، وهذا لا يعني إطلاقاً إلغاء التنوع والتعدد الثقافي، وإنما يعني السعي نحو تأسيس رؤية ثقافية كونية ناتجة عن التفاعل الإيجابي والحر بين مختلف مراكز الفكر والثقافة، فالتوحد ضمن حقيقة التعدد، والاتفاق ضمن حقيقة التنوع.

الهوامش :

[1] فيصل الحفيان، العلاقة بين اللغة والهوية، http://www.alukah.net/literature_language/0/7343/2009.

[2] أحمد شفيق الخطيب: "المواصفات المصطلحية وتطبيقاتها في اللغة العربية"، (بحث ضمن كتاب الموسم الثقافي الخامس عشر لمجتمع اللغة العربية الأردني – 1997)، عمان، المجمع، 1418هـ - 1997م، (ص: 193).

[3] محمد أمارة، لغتنا العربية : رؤيا وتحديات، دراسات -المركز العربي للحقوق والسياسات، لجنة متابعة قضايا التعليم العربي، المجلس التربوي العربي .الناصرة، 2013، ص 19.

[4] عبد الجواد توفيق محمود، الواقع اللغوي في العالم العربي في ضوء هيمنة اللهجات المحلية واللغة الإنجليزية، رؤى استراتيجية، يناير 2014، ص 131-132.

[5] عبد الله بن مسلم الهاشمي، دور منهاج اللّغة العربية في الحفاظ على الهوية العربية ومواجهة تحديات العولمة، مؤسسة الفكر العربي: المكتبة الرقمية،2010، http://www.arabthought.org/node/295

[6] أحمد مختار عمر، اللغة والهوية، دار غريب، القاهرة، 2004، ص17.

[7] المرجع نفسه، ص20.

[8] تركي رابح،"دراسات في التربية الإسلامية والشخصية الوطنية"،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،1982، ص22.

[9] نهاد الموسى، اللّغة العربية في العصر الحديث قيم الثبوت وقوى التحول، دار الشروق، ط1 ،عمان،2007 ، ص 164.

[10] المرجع نفسه، ص164.

[11] المرجع نفسه، ص 165.

[12] المرجع نفسه، ص 165-166.

[13] محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ، العدد 228، فبراير 1998، بيروت، ص17.

[14] نهاد الموسى، المرجع السابق، ص 168-169.

[15] المرجع نفسه، ص174-175.

[16] التميمي، محمد بن سعد،العولمة وقضية الهوية الثقافية في ظل الثقافة العربية المعاصرة، د.ن،ط1 ، د.م، 2001، ص111.

[17] نهاد الموسى، المرجع السابق، 174-175.

[18] الصانع ، فائز – اللغة والتعريف ودور الإعلام – دار مجلة الثقافة – دمشق – 1992، ص 161.

[19] محيي الدين عبد الحليم حسين، العربية في الإعلام - الأصول والقواعد والأخطاء الشائعة ، ط1 ، دار الشعب، القاهرة، 1988، ص11.

[20] الكردي، سعد محمد: الإعلام وتنمية الملكة اللغوية، مجلة مجمع اللغة العربية دمشق، م74 عدد3، 1999، ص06.

[21] محمود فاخوري، سلطان العربية في مضمار الإعلام، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، مجلد 74، ج 3، 1999، ص658.

[22] شرف ، عبد العزيز – وسائل الإعلام ولغة الحضارة، مؤسسة مختار للطبع والنشر، القاهرة، ص08.